القصص الديني

الحلقة الثالثة
قصص الخلفاء الراشدين

فتح دمشق

عبد الحميد جودة السحار

٦

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِن تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

(قرآن كريم)

عزم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ على فتْح الشّام ، فأرسلَ أربعة جيوشٍ إليها ، وسارتْ هذه الجيوشُ وقاتلت الرّوم ، فلقِيتْ منهم مقاومةً شديدة ، فرأى أبو بكرٍ أن يُعزِّزَ هذه الجيوشَ ببعضِ أبطالِ المسلمين ، الّذين يُحاربونَ الفُرسَ في العِراق ، فكَتبَ إلى خالدِ بنِ الوليد ، سيفِ اللّه المسلول ، أن يسيرَ من العراق إلى الشّام . واجتمعتْ جيوشُ المسلمين تحتَ إمرةِ خالد ، واجتمعتْ جيوشُ الرُّوم تحت إمرةِ ملكهِم هِرَقْل . وجاءتِ الأنباءُ بموتِ أبي بكر وتوليةِ عمرَ الخلافة ، وقد التقى الجيشان عند نهر اليَرْموك ، وقد دارتْ رحَى معرَكةٍ فاصلة ، بين الرُّوم والمسلمين . وجاءتِ الأنباءُ بعزلِ خالدٍ وتوليةِ أبي عُبيدَة بنِ الجرّاح ، قائدًا عامًّا على جميعِ جيوشِ المسلمينَ ، فكتمَ خالدٌ هذا النّبأ ، حتى تمتْ له هزيمةُ الرُّوم ، ثم أعلنَ النبأ ، وأعلن قَبولَه أن يعملَ كأحَدِ الجُندِ في

جيشِ أبي عبيدة ، فقد كان خالدٌ يحاربُ في سبيلِ اللّه ، سواءً عندَه أكانَ قائدا أم جنديًا .

وسار أبو عبيدةَ بالجيوش ، وقد جعل وجهتَه دِمَشق ، عاصمةَ الشّام ، فجاءتهُ الأخبارُ بأنَّ المَددَ قد أتَى أهلَ دِمَشْقَ من حِمْص ، فأصبحَ لا يَدْرى أيبدأُ بغزوِ دِمَشْقَ أم بمدينةِ فَحْلٍ من بلادِ الأرْدُنّ ، فكتب في ذلك إلى عمرَ بن الخطاب ، فلما جاء عمرَ الكتاب ، كتب إلى أبى عبيدة : « أمَّا بعد ، فابدءوا بدِمَشْق ، فإنّها حِصْنُ الشّام ، وبيتُ مملكتهم ، واشغَلوا عنكم أهلَ فحل بخيلٍ تكون بإزائهم في نحورهم » .

فسرَّح أبو عبيدةَ إلى فحل عشرةَ قوّاد ، فلما رأتِ الرّومُ أنَّ الجنودَ تُريدُهم ، بَثَقوا المياهَ حول فحل : أطلقوا ماءَ بُحيرةِ طَبَريَّة ونهر الأردنِّ في الأرضِ حولَهم ، فأرْدَغتِ الأرض ، ثم تَوَحَّلَت ،

وتعـذَّر السَّـيرُ فيهـا ، فوقفـوا بـإزاءِ الـرُّومِ وحاصروهم .

وأرسل أبو عبيدةَ جيشًا آخر ، ليقفَ بـين دِمَشْقَ وحِمص ، حتى يتعذَّر على هِرقـلَ ملكِ الـرُّوم ، الَّذى كان فى حِمْص ، أن يُرسلَ المددَ إلى دِمَشْـق ، إذا ما هاجَمها أبو عبيدةَ بجيشِه .

وسـار أبـو عبيـدة إلى دِمَشْـق ، وقـد جعـل علـى مقدِّمتِه خالدَ بن الوليد ، وعلـى مُجنِّبتيه عمـرَو بـنَ العاص وأبا عبيدة ، وانطلقوا قاصِدين دِمَشْق .

سار خالدٌ حتى أشرف على موضعٍ يقال له الثَّنِيَّة ، فوقف هناك ، وركَّزَ رايةَ العُقاب ، فسميت : « ثنيَّة العُقاب » ، ثم ارتحلَ منها إلى دَيْر ، وأقام على الدَّير ينتظرُ قدومَ أبى عبيدة ، فسُمِّىَ ذلك الديرُ فيما بعـدُ « دَيْرَ خالد » .

وبلغ هِرقلَ قدومُ خـالدٍ علـى دِمَشْـق ، فغضِـب ، وجمع رجالَه ، وقال :

هؤلاءَ العَرَبُ قد توجَّهوا إلى الرَّبوة ففتحوها ، فواكَرْباه ! لأنَّ دمشقَ جنَّةُ الشَّام ، وقد سارتْ إليها الجيوش : أيُّكم يتوجَّه إلى قتال العرب ، ويكفيني أمرَهم ، أعطيته ما فتحوه مِلْكا ؟

فقال أحدُ فرسانهم الشجعان .

ـ أنا أكفيك ، وأردُّهم على أعقابهم مُنهزمين .

وجهَّزه الملك ، وخرج على رأسِ خمسةِ آلاف فارس ليرُدَّ العربَ عن دِمَشْقَ جنَّةِ الشَّام . وزحف جيشُ الرُّوم على جيش خالدٍ كالجرادِ المُنْتشِر . فلمَّا نظر خالدٌ ذلك ، تدرَّعَ بدرعِه ، ثم صرخ في وجهِ المسلمين ، وقال :

ـ هذا يومٌ ما بعدَه يوم ، وهذا العدوُّ قد زحف بخيلِهِ ، فدونكم والجهاد ، فانصُروا اللّهَ ينصرْكم ، وكونوا ممَّن باعَ نفسَه للّهِ عزَّ وجلَّ .

هجم المسلمونَ على الرّوم ، ودار القِتال ، وتطايرتِ السِّهام ، ورأى الرُّومُ من العرب شجاعةً

أَفْزَعَتْهم ، فانسحبوا إلى دِمَشْق ، وأغلقـوا أبوابهـا ، وراحوا يجمعونَ جموعَهم ، ليستأنِفوا القتـالَ بعـد أن يُضمِّدوا جروحَهم ، ويُسوُّوا صفُوفَهم .

وأقبلَ أَبو عبيدةَ في جيشِه ، فأسرعَ خالدٌ إليه يخبره بمـا كـانَ بينَـه وبينَ الرُّوم ، وأَقبل المسلمون يُسلِّم بعضُهم على بعض ، فلمّا كـان الغد ، ركِب النّاسُ خيولَهم وتَزيَّنتِ المواكب ، وزحـف أَهـلُ دِمَشْقَ للقتال ، فقال خالدٌ لأبي عبيدة :

ــ إنّ الرُّومَ قد انخذلـوا ، ووقـع الرُّعـبُ في قلوبهم ، فاحمِل بنا على القوم .

فقال أبو عبيدة :

ــ هذا هو الرأى السَّديد .

ونزل خالدُ بنُ الوليدِ عَلَى البابِ الشّرقيّ ، ونـزل أَبو عبيدةَ على باب الجابيةِ الكبير ، ونزل عمرُو بـنُ العاصِ والقوّادُ الآخـرونَ على بقيَّةِ أَبوابِ البلد ، ونصبوا المجانيقَ والدّبّـابات . واستمرَّ الحِصار ،

وراحت الشُّهور تمرّ والرُّومُ فى حصون المدينةِ يقاومون ، ويُرسلونَ إلى ملكهم هرقل ، الذى كان بحمص ، يطلبونَ المَدَد ، فأرسلَ إليهم خيولا لتُغيثَهم ، ولكنَّ جيشَ المسلمينَ ، الذى وقف بين حمصَ ودِمَشْقَ ، هزم المدد ، فوقع أهلُ دِمشقَ فى حَيْرَةٍ شديدة .

٢

اشتدَّ الحِصار ، ولكنْ لم يدبَّ الضعفُ فى الرُّوم المتحصنينَ فى الحصون ، كانوا ينتظرونَ الشِّتاء ، وكانوا يأمُلونَ أن ينفضَّ العرب أبناءُ الصَّحْراء عن حصارهم إذا اشتدَّ البرد ، فقد كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعونَ احتماله . وجاء الشِّتاءُ ببرده الشديد ، وظلَّ المسلمون على حصارِ دِمَشْق . وانقضى

الشِّتاء ، وأَقبل الرَّبيع ، فضعُف الرُّوم ، وتيقَّنوا أَنَّ المسلمينَ لن يرجعوا عن دِمَشْقَ حتى يفتحوها ، ويستولُوا عليها . وأراد قائدُهم أن ينفُخَ فيهم الحماسة ، فوقف بينهم وقال لهم :

ـ إنه قد طاف عليكم قومٌ لا أَمانَ لهم ، وقد أَتَوْا يسكنونَ بلادكم ، فكيف صَبَرْتُم على ذلك ، وعلى هتكِ الحريم ، وسبيِ الأولاد ، وتكونَ نساؤكم جوارِيَ لهم ، وأولادُكم عبيدًا لهم ؟

فقالوا له :

ـ ها نحن بين يَدَيْك ، وقد رضينا بما رضيتَ لنفسِك ، فإن أمرتنا بالخروجِ خرجنا معك ، وإن أمرتنا بالقِتال قاتلنا .

ـ إني قد عزمتُ على أن أهجُم عليهم الليلة ، فإن اللَّيل مَهيب ، وأنتم أخبرُ بالبلدِ من غيرِكم .

ـ حُبًّا وكرامة .

وراح القائدُ يفرِّق جنودَه ، ففرَّق القوم على الباب الشرقيِّ فرقَة ، وعلى باب الجابيةِ فرقة ، وعلى كل بابٍ جماعةٍ .

وفي سكون الليل فُتحتِ الأبواب ، وتسلَّل الرُّوم ليقتلوا العربَ وهم نائمون ، ولكنَّ المسلمينَ كانوا في يَقَظَة ، فلما رَأَوْا قدومَ الرُّوم ، أيقظَ بعضهُم بعضا ، وتواثب الرِّجال من أماكِنهم كالأسود ، فتقاتل القومُ في جُنح الظَّلام ، وأسرع خالدٌ إلى جنوده وهو يصيح :

ـ أبشروا يا معاشرَ المسلمين ، أتاكم الغوثُ من ربِّ العالمين ، أنا الفارسُ الصِّنديد ، أنا خالدُ بنُ الوليد .

وعلا الرومُ الأسوار ، وراحوا يَرْمونَ المسلمينَ بالنِّبال ، واستمرَّ القتالُ في الليل ، وكانت ليلةً مقمرة ، فقُتل من الرُّومِ خلقٌ كثير ، ولم يستطيعوا

صبرا ، فانسحبوا إلى المدينة ، وأغلقوا أبوابَها خلفهم .

واجتمع كبارُ أهلِ دِمَشقَ إلى قائدِهم ، وقالوا له :

ــ أيها السيِّد ، إنا قد نصحناك ، فلم تسمعْ لقولِنا ، وقد قُتلَ منا أكثر النّاس ، فصالحْ ، أصلحْ لك ولنا ، وإن لم تصالحْ صالَحْنا ، وأنتَ وشأنَك .

فقال لهم :

ــ يا قومُ أمهلونى حتى أكتبَ إلى الملك .

٣

اشتدَّ الأمرُ على أهلِ دِمشْق ، فأرسلوا إلى خالدٍ أن أمهلْنا ، فأبى خالدٌ إلاّ القِتال ، وتحدَّثَ أهلُ دِمَشْقَ فى أمرِ الصُّلحِ فقالوا لرجلٍ من حكمائهم :

ـ كيف الرَّأْىُ عندَك ، فنحنُ نعلُم أَنَّ هـذا الأميرَ الذى على البابِ الشَّرْقىِّ (خالد بن الوليـد) رجـلٌ سفَّاكٌ للدِّماء ؟

فقال الرجل :

ـ إذا أردتُم تقـارُبَ الأمر ، فـامْضُوا إلى الـذى على بـابِ الجابيـةِ (أَبى عبيـدة) ، وليتكلمْ رجـلٌ يعرف العربيةَ ويقول :

« يا معشرَ العـرب ، الأمـانَ حتـى نـنزلَ إليكم ، ونتكلَّمَ مع صاحِبكم » .

وصعِد رجلٌ من الرُّومِ يَعْرِف العربيَّة ، على سـورِ المدينة ، وصاح يطلبُ الأمان ، فأرسل إليه أبو عبيدةَ أبا هريرةَ صاحبَ رسولِ اللّه ، فقال :

ـ لكم الأمان .

ـ أنا أبو هُرَيْرَة ، صاحبُ رسول اللّـه ﷺ ، ولـو أنَّ عَبيدًا لنـا أعطَوْكـُمُ الأمـانَ والذِّمام ، ونحن فى

الجاهليةِ لِمَا غَدَرْنا ، فكيفَ وقـد هدانا اللّـه إلى دينِ الإسلام !

وذهب وفدٌ من الروم إلى أبـى عبيـدة ، ليتكلّمـوا فى أَمرِ الصلح .

٤

ووُلد لبطريق دمَشْقَ مولودٌ فى هذه الليلة ، فـأعدَّ وليمةً فاخرة ، دعـا إليهـا الجنود ، فـأكلوا وشـربوا وتعبوا ، فناموا عن مواقِعِهم ، وكَان خالدُ بنُ الوليـدِ يرقُبُ حركاتِهم ، ينتظرُ فرصةً يَغفُلونَ فيها ، ليهجُمَ عليهم ، ويفتحَ مدينتَهـم ، التى دام حصارُهـا أَربعـةَ أشهر ، فلما لم يجدْ جنودَ الرُّومِ على أسوارِ المدينـة ، أرسَلَ بعضَ عيونِه ، ليرَوْا مـا الخبر ؟ فعـادوا إليـه ، وأخبروه أنَّ الجنودَ مشغولون بوليمة البِطريق .

وأعدَّ خالدٌ سلاليمَ من حبال ، ودعا بعض أبطالِ المسلمين ، وقال لهم :

ـ اتبعونى .

وقال لجيشه .

ـ إذا سمِعتم تكبيرَنا فوق السُّور ، فارقَوْا (فاصعدوا) إلينا .

وكان حولَ الحصنِ خندقٌ به ماء ، فقطع خالدٌ وأبطالُ المسلمينَ الخندقَ سباحة ، حتّى إذا بلغوا الحصنَ نصبوا السلالم ، وقد أثبتوا أعاليها بالشُّرُفات ، وصعدوا فيها ، حتى إذا استَوَوْا على السُّور ، رفعوا أصواتَهم :

ـ اللّه أكبَر .... اللّه أكبَر .

وسمِع جيشُ خالدٍ التكبير ، فأسرعَ المسلمون إلى الحِصن ، وصَعِدوا فى تلك السَّلالم ، وهبط خالدٌ

وأَصحابُه من السُّور إلى البوابين فقتلوهم ، وقطع خالدٌ وأصحابُه أغاليقَ البابِ بالسُّيوف ، وفتحوا الباب عَنْوَة ، فدخل المسلمونَ من البابِ الشرقيِّ كالموج ، وراحوا يقتلون من وجدوه ، فإذا بالمسلمينَ الذين دخلوا من الأبوابِ الأخرى يقولونَ لهم :

ـ إنّا قد أمّنّاهم .

فقال خالد :

ـ إنّي فتحتُها عَنوَة .

فأرسل إليه أبو عبيدةَ أن يكُفَّ عن القتال ، فقد صالح الناسَ وأمَّنهم ، ولما كان أبو عبيدةَ هو الأمير ، فقد سمع خالدٌ لأمرِه ، وأجرى الصُّلحَ على الجانبِ الذى فتحه .

وفُرضَت الجزيةُ على أهلِ دِمشْقَ يدفعونَها للمُسلمين ، على أَنْ تُتْرَكَ لهم حُرِّيَّةُ العِبادة ، وعلى

أن يتولّى المسلمونَ حمايةَ مدينتهم وأموالِهم . واستقرَّ المسلمونَ بعاصمةِ الشام ، وجلت عنها حاميةُ هرقْل ، وراح المسلمونَ يتبعونَ الرُّوم ، فلم يجد هرَقلُ بدًّا من أن يفرَّ إلى القُسْطنطينيَّة ، وأن يترُكَ الشَّام للعرب .